أنا البطريقُ.. أعجبُ وأغربُ الطيورِ

د. مصطفى فايز

نعم أنا أعجبُ وأغربُ الطيور

أنا الطائر الذي لا يطير

أنا الطائر الذي يعيش في الماء ولا يعيش في الهواء

أنا الطائر الذي يعيش في البحر ولا يعيش في البر

أنا أقضي الأيام والليالي بين الثلوج الباردة والأمواج المتلاطمة

أنا أحب أن أعيش في أشد بقاع العالم برودة

أنا الذي أجعل هذه المناطق مملوءة بالحياة والحيوية

إن كل هذا من نعمة ربي علي

لقد زودني ربي بوقاء يحميني من البرد القارس؛ إذ تحت كسائي الخارجي من الريش طبقة سميكة من الدهن، كما أن ريشي كثيف جدًّا وعازل جدًّا. كما أنه مغطًى بغشاء زيتي يحول دون وصول الماء البارد إلى جلدي.

إن ربي جعلني معجزة تمشي على الجليد ومعجزة حية في عمق المحيط، إن كل الطيور تمشي وجسمها متواز مع سطح الأرض، حتى الحيوانات كلها تمشي وجسمها متواز مع الأرض...

لقد خلقني الله أمشي وأقف منتصبًا على الأرض، مثلك أنت يا سيدي.

لعلي أنا المخلوق الوحيد بعدك يا سيدي الذي يمشي منتصبًا رافعًا رأسي، أنا كسائي الذي يغطيني استوحى منه القديسون والرهبان الذين يعيشون في عزلة يعبدون ربهم أرديتهم؛ فهم يرتدون رداءً أسود من الخلف ومن الأمام وعلى الصدر والرقبة الرداء الأبيض.

أنا أمشي وأقفز برشاقة، أنا جسمي شكله مثل (الطوربيد)، وعلى هذا المثال صنعتم أنتم يا سيدي (الطوربيد البحري السريع)، وأنا فعلاً سريع جدًّا في الماء، لقد وهبني الله قدره عجيبة على السباحة والغوص، أنا أغوص إلى أعمق أعماق الماء، أنا أحب أن آكل الأسماك، أنا لا آكل إلا من البحر، أنا لا آكل الحبوب مثل الطيور.

أنا متميز في كل شيء، وهذا التميز لازمٌ لي حتى أستطيع العيش في هذه المناطق التي لا يستطيع العيش فيها أيُّ إنسان، إن أيَّ إنسان إذا غطس إلى الأعماق التي أغطس إليها فإن ضغط الماء يحطمه، إن جهازه العصبي والبصري يفقدان قدرتهما على الحياة، لكنني أنا (الطوربيد البحري الحي) خلقني ربي متميزًا ومتحملًا وقادرًا على التناسل والتكاثر والحفاظ على نوعي في هذه المناطق الباردة، أنا (البنجوين) أستطيع أن أعيش في المناطق القطبية المتجمدة، وفي جزر المحيط المتجمد الجنوبي، وفي نيوزيلاندا، وفي كندا، أنا أحب البرد ولا أحب الحر.

أنا في هذا الصقيع الشديد وفي هذا البرد القارس أستطيع أن أضع بيضي وأحتضنه وأدفئه وأحافظ عليه حتى يفرخ.

إن زوجتي الحبيبة تضع بيضتين في العش الذي نبنيه من الحصى، وأنا أتناوب حضانة البيض معها، نحن شركاء حقًّا من أجل بناء أسرتنا الجديدة ومن أجل طفلينا العزيزين، وبعد خمسة أسابيع فقط يخرج من البيضتين فرخان كبيران شرهان من شدة البرد والجوع، نحن نحضر لهما

الأسماك والحيوانات المائية الرخوة سهلة الهضم، قد تقول لي من أين تحضرها في هذا المحيط المتجمد؟ فأقول لك إن ربي خلقني ولم ينسني، لقد زودني ربي، أنا الطوربيد المائي، بجناحين هما فعلاً زعنفتان كبيرتان، وأنا أستعين بهما في الغوص وفي توجيه جسمي، وزودني بقدميَّ العريضتين ذواتيِّ الأغشية الممتدة بين الأصابع فيعملان عمل (الموتور الطوربيدي) حتى أصل بسرعة إلى أعمق الأعماق؛ وحتى أصطاد السمك الذي أتغذى عليه ويتغذى عليه أطفالي.

أتعلم يا سيدي الإنسان أن هذين الفرخين الشرهين ينمو جسمهما إلى عشرة أمثاله في مدة أسبوعين، إنه نمو أسرع بكثير من نمو فرخي الحمام.

هذا النمو السريع يستلزم كميات وافرة من الغذاء؛ ولذا نصرف نحن الوالديْن معظم وقتنا بين البحر والعش، منهمكين في صيد كميات كبيرة من الأسماك لغذاء فرخينا. وفي غيبتهما يتعرض الفرخان لخطر كبير؛ فقد تخطفهما بعض الطيور الجارحة، وقد يتحركان خارج العش ويضلان السبيل، فلا يستطيعان العودة إليه. وفي هذا الوقت من العام يكون البر آهلًا بمئات الألوف من (طيور البنجوين) التي تفد عليه من أنحاء مختلفة؛ لتضع بيضها، وتربي صغارها، ويكون المكان أشبه بمعمل هائل للتفريخ، لا ترى فيه بقعة خالية من قدم تدب عليه.

وفي مثل هذا الزحام لا تسلم أفراخنا الصغيرة التي تترك أعشاشها، من أن تُداس بأرجل الطيور الكبيرة وتُزهق أرواحها.

ولدفع هذه الأخطار نلجأ إلى حيلة عبقرية نصون بها صغارنا. فنجمعها في مكان خاص، ويتعهد فريقٌ من كبار الآباء بحراستها والدفاع عنها، مع السماح لها بالتحرك واللعب داخل نطاق محدود، بينما يتعهد فريقٌ آخر بشئون التغذية، وقد يكون بين الفريق الأول متطوعون ليس لهم أبناء،

وقد يقوم أفراد من الفريق الثاني بتغذية صغار لا تجمعها بها صلة. ومثل هذه الطريقة في الحراسة والتغذية لا تبعد كثيرًا عن النظم المتبعة في مدارس الحضانة عندك أنت أيها الإنسان الكريم المكرَّم.

الصيام عندنا نحن أمة البطاريق:

وعندما يكتمل نمو الأفراخ نصوم عن الأكل، ونذهب إلى شاطئ البحر. ونبقى هناك حتى تسقط آخر خُصلة من الزغب من جسم أولادي، ويصبح جسمها مغطًى بالريش، وعندئذ تثب في الماء البارد، وترحل عن البر مبتعدة عنه مئات الأميال، وتعيش أولادي على الأسماك التي تلتقطها من البحر، وبعد مضي سنتين تدفعها فطرتها التي أودعها الله الخالق العظيم نحو البر لوضع البيض والصغار؛ وإذ ذاك تصوم عن الأكل شهرًا كاملًا حتى تظهر الأفراخ ثم تعمل أولادي كما عملتُ أنا على إطعام أفراخها حتى تكبر وتقوى وتنفصل عنها وتذهب إلى البحر وتبدأ حياتها الجديدة. وتتكرر دورة الحياة التي وضع ناموسها الخالق العظيم حتى تستمر الحياة. وبعد أن يذهب أبناؤنا إلى البحر يسقط عنها ريشها وينمو غيره، وفي أثناء هذه الفترة من التغير الجسماني نصوم أيضًا عن الغذاء. نحن البطاريق نصوم قبل أن تُلقى علينا مسئولية الأبوة، ونصوم قبل أن نستقل بالجهاد في حياتنا، ونصوم بعد أن يتركنا الأبناء. ولا شك أن الصيام ضروري لنا، كما هو ضروري لكثير من المخلوقات، ومنها أنت سيدي الكريم.